نهج التفكير العربي في الأدب

للأستاذ الدكتور أحمد ضيف

وكيل دار العلوم

كانت حياة العربي حياة بسالة وشجاعة ، وحياة نجعة وارتحال تدعوه إلى الدفاع عن نفسه وأهله ، ولم يكن يعنى بشيء عنايته بحفظ كرامته . يعيش عيشة الأبطال ، وعيشة البدو والرعاة : بين جمله وناقته ، وسيفه ورمحه ، بعيداً عن الحضارة وزينتها ، والعلوم وشكوكها ، فكانت حياته أشبه بحياة خيالية شعرية ، تشبه من بعض الوجوه تلك الحياة التي رسمها هوميروس في أساطيره وسطرها في قصته المشهورة « بالإلياذة » .

وكانت تلك الحياة يلائمها التحدث عن النفس ، والتغنى بالفضائل ، من كرم وشجاعة ، وعلو في الهمم ، وفخر بالأحساب . وكان العربي بفطرته فصيحا بليغا ، فتربى لديه ذلك الأسلوب الخطابي ، واتخذ لسانه عدة للإشادة بنفسه وقومه ، ومزج ذلك بتأملاته في الحياة ، وإلهاماته الفطرية : من حكم ، وأمثال ، وعبر ، ثم بأثر المنظورات في نفسه ، فكان ذلك هو شعره الجميل ، وأثره البليغ.

كذلك نشأ الفكر العربي في دائرة محدودة متصلة تمام الاتصال بحياته الفردية ، واستمد كل آرائه منها ، فكانت منبت فكره ، ومورد أخيلته ، ومهبط وعيه النفسي : في شعره ، وأحاديثه ، وضروب الكلام ، وفنون التعابير ؛ حتى كانت هذه الحياة الخاصة به هي كل الأدب العربي ، الذي يتحدث فيه الشاعر عن ميوله وأهوائه ، وحبه وبغضه ، ووصفه لما يرتسم في نفسه من مظاهر

الكون وجماله ؛ فتجمعت قوة التفكير لديه فى كل ماله صلة بحياته الفردية ، فتغنى فى شعره بكرم أصله ، وطيب أخلاقه ، وعلو همته ، وقوة شجاعته ، وإخلاصه فى حبه ، وتمدحه بميوله الغرامية فى شيء من الشجاعة وطهارة النفس ، فكانت كل أغراضه فى كلامه الفنى العميق ترمى إلى التحدث بنفسه وقوله ، كما قال السموءل :

تعيرنا أنا قليـــل عديدنا فقلت لها : إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل

. . . . . :

وقد تكون هذه المعانى وأمثالها مما هو معروف فى شعر العرب : من وصف الحروب والنضال بين الأفراد والقبائل — ليست وصفا لحياة الشاعر وحده ، بل وصفا لحياة قومه وعشيرته ، ممزوجة بحياته الفكرية ، ومحتوية على كل مايجول بخاطره ، ولكنها صورة لنفسه قبل أن تكون صورة لغيره .

وهذه المعلقات وأمثالها من الشعر الجاهلى والإسلامى صورة من هذا الشعر المملوء بالمعانى والأغراض المختلفة فى القصيدة الواحدة التى ترجع كلها إلى بث روح الشاعر ، ورسم حياته النفسية .

لهذا يمكن القول بأن التفكير العربى فى جملته يدل على نزعة فردية ؛ الغرض منها التحدث عن النفس لا عن الحياة الإنسانية العامة ؛ ولكنه بوصف طبيعته الإنسانية قد يندفع لغير قصد ولا مأرب إلى ذكر بعض معانى الحياة العامة ، ورسم صورها . ولشدة ذكاء العربى وصفاء قريحته ، وقوة شعوره — لاتكاد تجد حكمة من الحكم ، أو مثلا من الأمثال ، أو جولة من جولات الفكر الانسانى — إلا منبثا فى طيات كلامه ، وهذا من مميزات الفكر العربى التى جعلت آداب العرب جزءا من التفكير الانسانى العام .

ألست تجد فى كلام زهير هذه النزعة الفلسفية الممزوجة بالشعور الفردى؟

فبينما تراه يدعو إلى المحافظة على النفس والدفاع عنها إذ يقول :

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

تراه ينصرف إلى جهة من جهات التفكير العام حين يقول :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم

ومثل هذا كثير فى أساليب التفكير العربى ، وهو روح أدب العرب ، ذلك الروح الذى تمشى فى جميع عصور اللغة ، وتغلب على كل نزعة أخرى . وقد بقيت هذه النزعة الفكرية دعامة الأدب العربى .

فلما امتد سلطان الإسلام ، وجاء عصر بنى أمية ـ انتقلت هذه النزعة من ربوع نجد والحجاز وتهامة ومكة والمدينة ، إلى دمشق وبلاد الشام ، وانصبغت بصبغة إسلامية ؛ لأن الخلاف الذى كان بين القبائل البدوية من أثر البغضاء والعصبية ، ظهر ثانية على ألسنة الشعراء فى لباس دينى سياسى . وكانت حركة الشعر أدل ماتكون على هذه العصبية أو الأطماع السياسية ، كما كانت الكتابة والخطابة صورة لهذه الأطماع والمذاهب التى تدل فى جملتها على النزعة الفردية أو القومية العربية التى لاتدعو غير العرب إلى الاهتمام بها .

أما فى العصر العباسى فكان من لوازم هذا التغيير الذى حصل من نقل العلوم والفنون ، وانتشار الفلسفة ، وظهور المذاهب العقلية والاجتماعية ، وانتقال العرب من حياة بدوية إلى حياة حضرية ـ أن كان لذلك أثر فى الحياة الفكرية والأدبية .

أما فى الحياة الفكرية فسنعرض لما حصل فيها من انقلاب فى وقت آخر . وأما فى الأدبية فنستطيع أن نقول : إن التفكير العربى لم يتغير فى جملته ، ولم يختلف اختلافا كليا عما كان عليه منذ نشأته : من تسلط النزعة الفردية عليه ، والرجوع إلى منبع الفكر العربى من حيث الأخيلة ، والمعانى الجزئية ،

والموضوعات أو الأغراض التى كانت معروفة إذ ذاك ، بل رجع الأدباء — ولاسيما الشعراء — إلى طريقة التعبير التى كانت معروفة ، وإلى الصناعة اللفظية ، وجعلوا الشعر القديم نموذجا لهم ، ومثلا أعلى ينسجون على منواله ، وتقيدوا بكل شيء عربى قديم ، حتى فى طريقة التفكير والخيال التى تختلف باختلاف كل إنسان . فصار الشعر تحدثا عن النفس ، وصناعة متعملة ، وصار الشاعر إذا أحب أو كره ، أو مدح أو ذم — محتذيا نمط العربى فى شعوره وإحساسه .

ولكن هذه النزعة وهذا التمسك بالأسلوب العربى ، حفظ اللغة العربية من الضياع ، وحفظ مافيها من جمال وطلاوة ، وكان صورة تاريخية للفكر العربى البدوى ، ومورداً للكتاب والشعراء يرجعون إليه ، ويمدهم بالمعانى والأخيلة البديعة .

هذا فى الشعر : أما فى النثر فلم تحى فيه روح البداوة حياة طويلة ، ولم تعش فيه هـــذه القريحة العربية الخالصة أكثر من قرن ، بل لقد انصبغ بصبغة فكرية جديدة منذ ظهر القرآن الكريم ، فتمشى وراء الأزمان والأيام ، وما يحدث فيها من تقدم وارتقاء فى الحضارة : من علوم ، وفنون ، وحياة اجتماعية وسياسية ؛ لأنه لسان الدهر ، وترجمان الحوادث ، وتكأة العقل البشرى . يتغير بتغير العقول وما يحدث فيها من انقلاب فكرى .

لذلك لم يثبت على حال واحدة : فى موضوعاته ، أو فى أساليبه الصناعية ، أو فى أخيلته ، أو أساليب التفكير فيه ؟

أحمد ضيف